بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

انبنت ثقافة الأمّة الإسلامية على الحوار، سواء في علاقة المسلمين ببعضهم، أو في علاقاتهم مع أهل المذاهب والأديان، وهو ما ترسّخ سُنّة ثابتة عبر الأجيال مهما كان من قوّة وضعف في ظهورها، ومهما كان من تفاوت في ثراء ثمارها بين حين وآخر، ولا غرو فإنّ هذه الثقافة صُنِعت بتوجيه دينيّ يُشرّع للحوار، فاستقرّت على أنّها مطلوب ديني واجبُ التحقيق، وذلك بحسب ما جاء في القرآن الكريم من توجيه مؤكّد في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: 64]. وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

وإنّما شرّع الإسلام الحوار مع أهل الأديان لسببين: الأوّل: تحقيقاً لمبدأ الدعوة الذي هو مبدأ أساسي في الدين، وهو لا يتمّ إلاّ بالحوار، وما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب. والثاني: بناء للعلاقة بين المسلمين وغيرهم على أساس من الانفتاح والتعارف نزعاً لأسباب الفتنة والصراع، وتأسيساً لأسباب التقارب والتعاون والوئام، وهو ما صدّقته الأيّام في علاقة المسلمين بغيرهم من أهل الديانات في أغلب فترات التاريخ، وما كان يشوب هذه العلاقة أحياناً من وجوه الصراع إنّما كان بأسباب أخرى تعود في أغلبها إلى ممارسات عدوانية، ولا تعود إلى سبب الاختلاف في المعتقد.

ومن أجلى المظاهر في ثقافة الحوار بين المسلمين وبين أهل الأديان ما

اتّجه إليه المسلمون منذ وقت مبكّر في نشأة علومهم من انكباب على دراسة الأديان في عقائدها وشرائعها وتواريخها دراسة علمية متقصّية وعميقة، حتى تأسّس من ذلك بالتدرّج فرع علمي متميّز يتداخل أحياناً مع علم الملل والنحل، ويستقلّ أحياناً بما يشبه علماً للأديان، ناهيك عمّا كان عارضاً بالبيان والشرح والاعتراض والردّ في أثناء الكثير من العلوم الأخرى وبخاصّة منها علم الكلام. وفي هذا الصدد يمكن أن يذكر الكثير من علماء المسلمين الذين شاركوا بالتأليف في هذا العلم، ومنهم على سبيل المثال: الشهرستاني والبيروني وابن حزم وابن تيمية ورحمت الله الهندي وغيرهم كثير.

ومن مجموع الدراسات الإسلاميّة للأديان تكوّنت مدوّنة واسعة من المؤلّفات ذات قيمة علمية وتاريخية ذات شأن، وهي مدوّنة ساهمت إلى حدّ بعيد في أن تعدل بموقف المسلمين من أهل الأديان من الرفض القائم على ردّ الفعل العاطفي وما يتبع ذلك من توتّر واضطراب، وهو المرشّح لأن يكون في حال الاختلاف العقدي، إلى موقف الدرس والبحث والتبيّن وما يتبع ذلك من النقد الرصين والردّ الجميل الذي يحفظ للعلاقة أقداراً من التعايش والوئام مهما يكن من شدّة في النقد وحدّة فيه.

وقد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنّ هذه المدوّنة الإسلامية في دراسة الأديان كانت عاملاً مهمّاً لأهل هذه الأديان أنفسهم ساعدهم بطريقة أو بأخرى على كثير من المراجعات والإصلاحات، وأصبح لهم مرجعاً مهمّاً في فكرهم الديني فيما يشبه صنيع المسلمين بالتراث اليوناني وما كان لذلك من شأن مرجعي في الفكر الغربي عند نشأة النهضة الحديثة.

والناظر اليوم في أحوال المسلمين من حيث ثقافة الحوار مع المخالفين بصفة عامّة وأهل الأديان بصفة خاصّة، يتبيّن بيسر أنّ هذه الثقافة مالت عن السنّة القديمة في الدرس والبحث والتقصّي والنقد الرصين، إلى موقف ردود الأفعال الرافضة رفضاً هو أقرب إلى أن يكون تلقائيّاً عاطفيّاً، وهو ما يفضي إلى نتائجه المنطقية من توتّر ورفض وما ينشأ عن ذلك من مواقف عملية تنحو منحى الصدام والعنف بديلاً للتعايش والوئام والتعاون التي تنشأ من ثقافة الحوار.

ولو نظر الناظر في شأن الصحوة الإسلامية الممتدّة في آفاق العالم الإسلامي، والّتي تضمّ في أغلبها جموع الشباب، من حيث ما يعلمه هؤلاء عن الأديان المخالفة، لأسفرت الصورة عن أنّ الأغلبية الساحقة من هؤلاء ليس لهم بهذه الأديان معرفة علمية عميقة ودقيقة في عقائدها وشرائعها وتطوّراتها التاريخية، وإنّما هم يعلمون منها مجرّد أسمائها، أو لهم تصوّرات عنها من خلال ما يقال فيها مخلوطاً حقًّا بباطل، وما صدر ويصدر عن أهلها من تصرّفات قد لا تكون في كثير من الأحيان صادرة عنهم بمقتضى دينهم، وفي كلّ ذلك تغيب المعرفة العلمية التي كانت الثقافة الإسلامية متأسّسة عليها في عهد ازدهارها، ولا جرم إذاً أن ينشأ من ذلك ضعف شديد في القدرة على الحوار مع أهل الأديان، بل أن ينسحب هذا الحوار من مكوّنات الثقافة الإسلامية ليحلّ محلّه الرفض والكراهية والعداء عناصر مكوّنة لتلك الثقافة، وما نشهده من تصرّفات البعض من هؤلاء المنتمين للصحوة الإسلامية تفضي إلى أحداث تضرّ بالإسلام والمسلمين بالغ الإضرار، ليست بعيدة عن أن تكون أحد إفرازات هذا الوضع الثقافي، الذي يغيب به الدرس العلمي الواعي للأديان والمذاهب المخالفة، ويحضر الجهل بها أو التصَوّر عنها بما هي أقرب إلى الإشاعات والأَخيْلة منها إلى العلم الحقيقي.

وقد آن الأوان لأن تقوم جهود المهتمّين بالشأن الإسلامي بصفة عامّة، والمهتمّين بشأن الصحوة الإسلامية بصفة خاصّة بالاتّجاه نحو تعديل هذا الميل الثقافي في العلاقة بالأديان والمذاهب المخالفة وأهلها، وأن تعود الثقافة الإسلامية إلى سنّتها الحوارية مع تلك المذاهب والأديان، وهي السنّة التي تقوم أوّلاً على الوقوف منها موقف الدرس العلميّ الموضوعيّ العميق الذي يستبينها كما هي في تطوّرات تاريخها وفيما تجري عليه تصوّرات أهلها وتطبيقاتهم، ثمّ موقف النقد العادل لها في كلّ تلك الوجوه نقداً يستهدي بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: 8]، وهو المنهج الذي جرت عليه السنّة الثقافية الإسلامية في أغلب الأحوال من التاريخ الفكري للمسلمين، فمن شأن ذلك أن يرشّد من مسيرة العلاقة بين المسلمين وغيرهم نحو أن تكون علاقة التعارف والوئام والشراكة الحضارية العامّة بين بني الإنسان.

ولا أخال المعهد العالمي للفكر الإسلامي إلاّ مستشعراً لهذه المسؤولية باعتبار ما نهض من أجله من مهمّة الإصلاح للفكر الإسلامي، ولذلك فهو يقوم بنشر هذا الكتاب ضمن سلسلة منشوراته، إذ الإصلاح الفكري في اتّجاه الثقافة الحوارية بخصوص العلاقة مع أهل المذاهب والأديان يستلزم ـ منهجيّاً ـ استيعاب التجربة الإسلامية في هذا الشأن، وهي تجربة غنية ثرية كما ألْمحنا، والتاريخ الفكري الثقافي للأمّة موصول أوّله بآخره، يتراكم وإن تطوّر، وينتظم موصولاً بعضه ببعض وإن شهد محطّات للتصحيح والتعديل.

إنّه ـ في سبيل إشاعة الثقافة الحوارية ـ لَحَريّ أن يقف الجيل الإسلامي الراهن على تجربة الأجيال السالفة في موقفها من الأديان موقف الدرس والبحث، وأن يتبيّن المنهج الذي اعتمده المفكّرون والمؤلّفون في ذلك عرضاً ونقداً، وأن يستوعبوا ما كان لذلك من أثر في ترسيخ ثقافة الحوار، وترشيد أساليب التعامل مع المخالفين، وذلك في سبيل أن يُستفاد من هذه التجربة أخذاً منها لما هو قويّ صائب، واتّقاءً لما قد يكون ضعيفاً خاطئاً، ومراعاة في كلّ ذلك لما تقتضيه تطوّرات الزمن، ومستجدّات الأوضاع، ومتطلّبات الأحوال في منهج التحليل والعرض، وفي أساليب الحجاج والنقد.

وفي هذا السياق وقع الاختيار على هذا البحث الذي يعرض بالدرس عرضاً مقارناً تجربتين من تجارب المؤلّفين المسلمين في دراسة الأديان، هما: تجربة ابن تيمية كما تضمّنها كتابه «الجواب الصحيح»، وتجربة رحمت الله الهندي كما تضمّنها كتابه «إظهار الحقّ». وإنّما وقع الاختيار على هاتين التجربتين لاعتبارات يتعلّق بعضها بالتميّز الذاتي في كلّ منهما للدين المسيحي، ظاهراً في شمول العرض ودقّته وعمقه، وفي قوّة الحجاج والنقد، مع الموضوعية والنزاهة والعدل بأقدار كبيرة في كلّ منهما، ويتعلّق البعض الآخر بالتنوّع الزمني والمنهجي في الدراستين، وهو ما يضفي حيوية في العرض ويضيف ثراء فيه.

وقد استطاع الباحث أن يعرض هاتين التجربتين في دراسة الأديان بما يوفي بالغرض المطلوب إلى حدّ كبير، أن توضع بين يدي المهتمّين بهذا الشأن

الدراسة التي قام بها كلّ من المفكّرَيْن في صورة تمكّن من الاستفادة منهما في سياق الهدف المطلوب على أحسن الوجوه، بحيث يتيسّر توظيف ما هو معروض في سبيل التعديل الثقافي في اتّجاه الصفة الحوارية المنتجة للتقارب والوئام بديلاً عن التباعد والصراع، ولم تكن هذه المهمّة سهلة، ولكنّ الجهد الكبير الذي بذل فيها استطاع أن ينجز منها أشواطاً مقدّرة.

لقد عمد الباحث إلى أن يتقصّى دراسة كلّ من المؤلّفيْن، وأن يعيد في عرضه للقارئ ترتيب كلّ منهما على المفاصل الهامّة فيهما من حيث القضايا ومن حيث المنهج، مراعياً في ذلك لما يصوّر حقيقة كلّ تجربة في ذاتها بما لا يخلّ بمقصود صاحبها منها وما بذله من جهد فيها، ومراعيا أيضاً الغرض الذي من أجله تعرضان، فيما يقتضيه ذلك من إبراز لما تدعو إليه حاجة المخاطبين بهذه الدراسة بحسب الغرض المطلوب، ومن توجيه لذلك نحو ما يحقّق الغرض، وانتهاء إلى ما يؤسّس ثقافة الحوار ويدعّمها.

ومنهج المقارنة الذي اقتضته طبيعة الدراسة، والذي الْتزمه الباحث باقتدار أضفى عليها حيوية في ذاتها بالانتقال في الوصف من زمن إلى زمن ومن فكر إلى فكر، ومكّن من تسديدها نحو ما هو مطلوب منها من أغراض، فقد كان هذا المنهج المقارن يربط بين المنحى الذي انتحاه كلّ من المؤلّفيْن الجليليْن في التأليف موضوعاً ومنهجاً وبين المقتضيات الظرفية التي اقتضت ذلك، سواء فيما يتعلّق بأحوال المخاطَبين أو بالغرض من الخطاب، وهو ما من شأنه أن يفيد كبير الفائدة في بناء الثقافة الحوارية على ما تقتضيه الأحوال الراهنة وتتطلّبه الأوضاع المقصودة بالعلاج، حيلولة دون أن تسقط في مثالية غالية تطوّح بها نحو الغلوّ الذي لا يقطع أرضاً ولا يبقي ظهراً.

وممّا أثمرته هذه المنهجية المقارنة أيضاً ما أتاحت من فرصة لتبيّن مظاهر القوّة ومظاهر الضعف في كلّ من الدراستين، إذ عند المحاكمة تستبين الأحوال في ذلك، وهو ما كان عاملاً إضافيّاً يساعد على التوجيه الثقافي نحو أن يؤخذ بما ظهرت بالمقارنة قوّته في العرض والاحتجاج ومراعاة الأحوال، وأن يتّقى ما ظهر بالمقارنة أيضاً ضعفه في ذلك، وهو مسلك توجيهي مفيد في هذا الشأن.

إذاً، فإنّ ما قام به الباحث من جهد علمي مقدّر في البحث والتقصّي والتوجيه، وما قام به المعهد العالمي للفكر الإسلامي من اختيار له بالنشر ضمن خطّة منشوراته الهادفة في عمومها إلى الإصلاح الفكري الثقافي، لتضيف عاملاً من عوامل الترشيد للثقافة الإسلامية في اتّجاه ترسيخ الصفة الحوارية فيها مع كلّ المخالفين للمسلمين في المذهب والدين، طلباً للوئام بين بني الإنسان عامّة، فجزى الله تعالى كلّ من ساهم في هذا الجهد خير الجزاء.

أ.د. عبد المجيد النجّار

obeikan.com

المـقـدّمـة

الحمد لله الذي مَنّ علينا بتوحيده، وأنعم علينا باتّباع خير السّبل، الذي جنّبنا الأهواء المذلّة، والآراء المضلّة، أرانا الحق، إذ هدانا لبرهانه ودليله، وأظهر لنا الباطل، وتفضّل علينا بالعدول عن سبيله، نحمده بمحامده التي لا تحصى، ونشكره على آلائه التي لم تزل تَتْرى، والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله أئمة الهدى، وخصوصاً المبعوث رحمة للثقلين، المفضّل على العالمين، المؤيد بالآيات والبراهين صلى الله عليه وعلى آله الطيّبين الأطهار. وبعد:

تتميّز المكتبة الإسلامية في مجال مقارنة الأديان، وبالذات الردود الإسلامية على أصحاب العقائد الأخرى وخاصة النصارى، بثراء كبير ونادر، ممّا جعل من ذلك إرثاً معرفيّاً مؤصّلاً، ينتمي إلى ميدان الجدل الدّيني، الذي غطّت محاوره كلّ المباحث الكلاميّة القديمة، يوم أن كانت الدراسات الدينية المقارنة جزءاً تابعاً للقضايا العقدية الكلية، فيقترن إثبات التوحيد المطلق لله تعالى، بذكر مسالك الشرك الذي وقع فيه أصحاب الملل والنّحل، والكتابيّون منهم خاصّة، وما إلى ذلك من مباحث النبوّة والرّسالة والموت والبعث والحساب. فالمسألة في الأساس مرتبطة بالقيمة المعياريّة أو بالمصدر المعرفي المطلق الذي تنتمي إليه حقائق الاعتقاد، لذلك فإنّنا نعتقد أنّ المتتبّع لتاريخ تأسّس الدراسات الدينية المقارنة، يجد أنّه تكوّن تطوّرياً مثل غيره من العلوم التي نشأت تابعة، ثمّ استقلّت مكوّنة اتّجاهاً معرفيّاً متميّزاً على مستوى المنهج والقضايا.

وبتتبّعنا للكمّ الهائل لهذه المصنّفات المختصّة، والتي أُلّفت في فترات زمنيّة مختلفة ومتباعدة أحياناً، وجدنا أنّه من الصّعب الوقوف على كلّ ما أُلّف،

فضلاً عن أنّ المكتبة الإسلاميّة عاجزة عن تجميعه وضبطه، فكثيرة هي المصنّفات التي نجد لها إشارات هنا وهناك ولكن لا نقف لها على أثر بين الكتب المطبوعة أو المخطوطة، وقد قاربنا في توثيق عناوينها من المائتين، وهذا قليل إذا ما قارنّاه بالجهد المبذول من علماء العقيدة والمنشغلين بقضايا الجدل الديني، فكان لزاماً علينا إزاء هذا العدد الوافر من الردود الإسلامية، سواء منها التي استأثرت بكتب مستقلّة أو الواردة ضمن مؤلّفات ذات اهتمامات أشمل، أنّ نحدّد مِن الروافد لبحثنا هذا ما نراه أوفى بالغرض، من حيث الأسبقيّة التّاريخية وكذلك من حيث الجدّة الموضوعيّة والمنهجيّة، حتّى يستوعب عملنا كلّ المراحل التّاريخية، ابتداء من رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي، مروراً بالقاضي عبد الجبّار بن أحمد الهمذاني، وتقي الدّين أحمد ابن تيمية، وصولاً إلى رحمت الله الكيرانوي الهندي، وغير هؤلاء عدد كبير من الذين أسهموا بمصنّفات فريدة في التأسيس والتطوير.

إلاّ أنّ هذا الثراء الفريد من الممكن أن يتحوّل إلى كمّ هائل من المؤلفات المتراكمة، غير ذات معنى إن لم يُرجع إليها الاعتبار، ويعاد فيها النّظر على أساس أنها رصيد الأمة الإسلامية في مجال هام، بدأ يطرح نفسه بحدّة في عالم أصبح في حراكه الفكري يؤسّس منهجية علمية لكل فن وعلم، إذ لم تعد قضية المنهج مجرد تصور عائم للخروج من مأزق السطحية والارتجال، نحو تأسيس رؤية إسلامية واحدة واضحة تعيد تشكيل العقل الإسلامي على هدي من نصوص الوحي الإلهي بوصفه معياراً خالداً لأمة شاهدة على الناس. والمدرسة الإسلامية اليوم أحوج ما تكون لهذا العمل التأسيسي المؤصّل، من أجل التميّز وتحقيق الذّات، في وسط زحمة المناهج المشوّهة الدخيلة على عقيدتنا وتراثنا، بحيث تستحضر ما أبدعته الحضارة الإسلامية في جميع مراحل تفاعلها الفكري الهادف.

يجب طرح قضيّة المنهج الإسلامي على أنّه إشكالية معرفيّة مبدئيّة، وليست من باب المنافسة أو بدافع رَدّة الفعل أو بحثاً عن التميّز فحسب، فتبني الصفة الإسلاميّة يسير، إلاّ أنّ التأصيل المعرفي على قاعدة المرجعيّة العقدية المعياريّة

عمل شاق، يتطلّب علماً بالدّين وصبراً على الوصول إلى النتائج، لأنّ ضبط التصوّر الإسلامي وتحديد الرؤية الشرعيّة النموذجيّة هما الوجه الآخر لأصول الاعتقاد، كما أنّه لا يمكن الحديث عن ملامح الاجتهاد والتجديد، إلاّ من خلال التفاعل الإيجابي بين النّص والواقع والتجربة، وذاك هو مجال تحرّك العقل الجامع بين الفهم والتفكيك والتركيب والاستيعاب، لا التأسيس المطلق غير المنضبط بالنّص. وفي ضوء ذلك تحرّك أصحاب الرّدود الإسلاميّة الذين جعلوا من الوحي قاعدة معياريّة، ووظّفوا العقل رافداً رئيساً في الحِجاج والتقويم، ونراه قد بلغ صورته المثلى عند ابن تيمية ورحمت الله الهندي بوصفهما نموذجين متميّزين في ميدان الجدل الديني، على مستوى التأسيس، وكذا من حيث التطوير والتجديد المؤصّل، الذي أقاما نسيجه من خلال الجمع بين الأنساق التجريبية التاريخية والتراكم المعرفي الواعي ذي المرجعيّة العقدية المنضبطة.

وبالمراجعة الهادئة لمؤلفات الإسلاميين في الرد على العقائد النصرانية، يمكن الوقوف على معالم التواصل التاريخي للمنهج الإسلامي، الذي أسهم في تأسيسه عقد فريد من علماء الأمة، وعندها نخرج بشيخ الإسلام ابن تيمية من دائرة تصنيفه الضيقة لا أنه محارب للبدع والضلالات في الدائرة الإسلامية فقط، وإنما بإبرازه صاحب منهج إسلامي مستقل في الرد على النصارى ونقد عقائدهم، في كتاب متميز بين المصنفات الإسلامية (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح)، وبهذه الدراسات يمكن أن نخرج من الدائرة المفرغة ونحرّر موضوعات البحث في مجال العقيدة من النسخ والتكرار الجاف، نحو تأسيس رؤية إسلامية ناضجة تسهم في بلورة المشروع الإسلامي الكبير، عبر تأصيل الحياة المعرفية الإسلامية في حراكها وتفاعلها الدائم، ولكن ذلك لا يتمّ من خلال الدراسات التّاريخية التوثيقية فحسب، وإنّما يتمّ من خلال استيعاب تلك التجربة، واستخلاص مناهجها المختلفة، والوقوف على أوجه التميّز بينها وصور التجديد فيها، والتحرّك بها في واقع مغاير، تراكمت فيه التجارب وصور الإبداع الإنساني، وعلى خلفيّة الاستناد إلى المرجعيّة الدينية الثّابتة، باعتبارها قيمةً أساسيّةً لأيّ عمل يبتغي التأصيل ويبحث عن الصفة الإسلاميّة، وهو غاية بحثنا هذا الذي يجمع بين الدراسة التّاريخية والتأسيس المنهجي.

إن أهميّة هذه الدراسة المقارنة، الجامعة بين فترتين تاريخيّتين متباعدتين نسبيّاً (القرنين الرّابع عشر والتّاسع عشر للميلاد)، يمثّل الأولى ابنُ تيمية في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح) ويمثّل الثّانية رحمتُ الله الهندي في كتابه (إظهار الحق)، تنبع أساساً من طبيعتها المتصلة بقضية المنهج الإسلامي، وفي ذلك يكمن سبب اختيارها. فالكم الهائل الذي تزخر به المكتبة الإسلامية من المصنفات الهامة المتصلة بهذا المبحث، بقي حبيس الرفوف، نادراً ما يُنظر فيه، إلا بحثاً عن إجابة آنيّة لإشكال عارض، وأمام التغيّرات الجوهريّة التي طالت القواعد البنيوية في العقل الإنساني، في تحرّره من ملابسات العفوية والارتجال، وسعيه نحو التقعيد العلمي والضبط المنهجي، وذلك بيّنٌ في الدراسات النقديّة الدينية، فإنّ الحاجة أصبحت أكثر إلحاحاً لإعادة الاعتبار لهذا الجزء من التراث الإسلامي، وإعادة النظر فيه لاستنباط مقوّمات المنهج الإسلامي في مجادلة النصارى، للخروج من مأزق المناهج الدخيلة، من أجل تركيز أكثر للدراسات الإسلامية المستقبلية، في ضوء فهم أعمق للنّصوص الدينية، وتوظيف أرقى وأدق للعقل النقدي.

تلك هي الملامح الكبرى للمنهج الإسلامي، الذي استقى قواعده التأسيسيّة الأولى من القرآن الكريم والسنّة النبويّة المطهّرة، وفي ضوء ذلك فهم علماء الإسلام طبيعة الدراسات النقدية المقارنة، فعملوا على تطوير المنهج ونحت قواعده، معتبرين الواقع ورصيد التجربة الإنسانيّة في هذا الميدان، وهذا الذي عنيناه سابقاً بالأنساق التجريبيّة التّاريخية والتراكم المعرفي، والذي جعل من هذا العلم شراكة بين المهتمين به، وبرغم الأسباب الذّاتية والموضوعيّة التي دفعت بعلماء الغرب في هذا الاتّجاه، وخاصّة الفيلسوف اليهودي سبينوزا باروخ Spinoza Baruch، فإنّنا لا ننفي إمكانيّة تأثّرهم بالتراث الكلامي الإسلامي في مجال الجدل الديني، النقدي منه والمقارن. بل إننا نجد أثراً لذلك في مصنّفاتهم إما تصريحاً أو تلميحاً، وهو ما ينطبق على المتقدّمين من علماء اللاّهوت غير المسلمين، من الذين ناظروا وألّفوا في الأغراض الجدلية نفسها. ويتجلّى ذلك أكثر وضوحاً عند سعيد بن البطريق في «نظم الجوهر»، والحكيم الفيلسوف موسى بن ميمون القرطبي الأندلسي، الذي تلقّى جزءاً من معارفه

الدينية والفلسفيّة على يد فقهاء وعلماء مسلمين من مثل: ابن الأفلح وابن رشد وأحد تلاميذ أبي بكر بن الصائغ، فجاءت مؤلّفاته حبلى بتلك المؤثّرات، ككتاب «دلالة الحائرين» و«مقالة عن البعث» وخاصّة «مشنة تورة» (أي تعاليم التوراة)، والذي أثار تحفّظات كثير من اليهود، تماماً مثل الابتلاء الذي تعرّض له سبينوزا عند تصريحه بآرائه النقدية والتجديدية، وخاصّة عند صدور كتابه «رسالة في اللاّهوت والسياسة».

وبناء على تلك المقدّمات، فقد استخرت الله سبحانه وتعالى في التوجّه إلى هذين التصنيفين الذين لم يأخذا حظّهما من البحث المتكامل، من حيث الدراسة المضمونية والمنهجيّة، برغم أهمّيتهما وعظم مكانتهما بين المصنّفات الإسلاميّة المختصّة، وقد رأيت أنّ أيدي المختصّين لربّما لم تمتدّ إليهما، لضخامة حجميهما وما يستلزم ذلك من طول نفس ومصابرة وسعة وقت، للغوص في مكنوناتهما واستخلاص دررهما الثمينة.

فقد ألّف ابن تيمية كتابه (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح) في مرحلة دقيقة تمرّ بها الأمّة الإسلاميّة، حيث شاع الانحراف العقدي وظهرت البدع واستهدفت مختلف الملل والنّحل بسهامها جوهر الاعتقاد لتقويض أركانه، لذلك جاء الكتاب موسوعة علمية متخصصة في موضوعه المتعلق بالردود الإسلامية على النصارى، وهو بحسب الطبعة المحققة التي اعتمدناها يقع في ستة أجزاء، أراد به المؤلّف الردّ على رسالة بولس الأنطاكي النصراني التي جاءت حبلى بالشبهات والمغالطات، وقد كانت سبباً كافياً للمؤلّف لوضع كتابه هذا، لردّ باطلها ودرء مفاسدها وكشف الالتباس وإعلان الحقيقة بين عامة النصارى وتثبيت المؤمنين. فهو لم يكتف فقط بالردّ على ما جاء في الرّسالة من مغالطات، بل تعدّاها إلى ضرب المرتكزات النظرية التي قامت عليها، بتصحيح ما وقعوا فيه من أخطاء في تفسير الآيات القرآنية وشرح الأحاديث النبويّة، بل ومراجعتهم في طريقة فهمهم للنصوص وكيفية تعاملهم مع مصادرهم المعرفية «كتب العهدين»، مجرياً في الوقت نفسه دراسةً مقارنة دقيقة للرسالات الثلاثة: اليهودية والنصرانية والإسلامية، بل كان أوّل من تحدّث عن الجذع الإبراهيمي المشترك، ولربّما تختلف المصطلحات ولكن تلتقي المضامين، فمصدر الوحي واحد وكذا التسمية والغاية.

وبالمراجعة التّاريخية، نجد شبهاً كبيراً بين الفترتين الزمنيتين برغم تباعدهما تاريخيّاً، فقد ألّف رحمت الله الهندي كتابه «إظهار الحق» والهند ترزح تحت نير الاحتلال الإنكليزي، وما رافق ذلك من حملات تنصيرية وتآمر على الإسلام في عقر داره، أضف إلى ذلك استشراء الجهل وكثير من صور الانحراف العقدي بين عامّة المسلمين وبعض خاصّتهم، وقد أراد المؤلّف لكتابه أن يكون ردّاً علميّاً على مقولات المبشّرين، ينطلق منها ويعتمدها لنقضها من الدّاخل، بتدمير بُناها المعرفية التي قامت عليها، وهو أسلوب جديد غير مألوف عند معاصريه، كما أراد رحمت الله أن يكون كتابه هذا عملاً توثيقياً يضمن به حفظ تفاصيل المناظرة التي جمعته بزعيم المنصّرين في الهند كارل غوتليب فندر Karl Gottlieb Pfander، الذي قام بتحريف أطوار المناظرة بعد انهزامه على المستويين التحريري والروائي.

لذلك جاء الكتاب مراوحة بين الدراسة التّاريخية التراثية والتأسيس المنهجي العلمي المؤصّل، للكشف عن ملامح منهج أصيل، في إطار مشروع أكبر، له رجاله ومؤسّساته المختصّة، بدأت تتشكّل معالمه في إطار ما اُصطلِح عليه بنظريّة إسلاميّة المعرفة، نحو رؤية جديدة وتقويم أدقّ للتجربة الإسلاميّة، على مستوى المعارف والمناهج. ولعلّ مجال الدراسات الدينيّة المقارنة أهمّها وأخطرها، لما لها من صلة مباشرة بالاعتقاد وجوهر التوحيد، ولا أدلّ على ذلك من اشتراك الفقهاء والأصوليّين والمتكلّمين والمؤرّخين والفلاسفة المسلمين في مختلف مباحثه الجدلية، وهو ما يستهدفه الكتاب من خلال تركيزه على التدقيق في قضايا المنهج الإسلامي.

لقد أردت من وراء عملي هذا مرضاة الله سبحانه وتعالى أوّلاً، والإسهام قدر الإمكان في حركة التأصيل الفكري الإسلامي، إثراءً للمكتبة الإسلامية بما يعود بالنفع على الأمة المسلمة خاصّة والإنسانية عامة. وأشهد الله تعالى أنّي اجتهدت ولم آلُ، بحثاً وتنقيباً وتحقيقاً، وأمّا ما فاتني فهو راجع لطبيعة البشر المفطورة على النقص، وإنّي لأرجو من قرّاء الكتاب النّصح والتوجيه والنّقد والتقويم والمراجعة. والله وليّ التوفيق.

د. محمّد الفاضل بن علي اللاّفي